الباب الثالث
الأشكال المجهرية في الطبيعة
Microscopic Shapes

الفصل الأول: التطور الحضاري وعلاقته باكتشاف الملامح الفنية والجمالية في الطبيعة.

The Relaion Of Civilizational Development and Discovering Artistic Beauty Features in Nature

- مقدمة.
- التقدم العلمي وأثره على رؤية الفن للطبيعة.
- التكنولوجيا الحديثة والفن.
- نظم وقوانين بناء الأشكال في الطبيعة.

مقدمة:

لقد تغير مفهوم دراسة الطبيعة وطرق الاستفادة منها في مجال الفن، تبعاً للتغيرات العلمية والتطورات الحديثة، ونتيجة للاكتشافات المختلفة فلم يعد إدراك الطبيعة قاصراً على مظاهرها الخارجية فقط ، وإنما اتسع مجال الإدراك والاستفادة ليشمل الأنظمة المتعددة الكامنة داخل الأشكال والقوانين التي تنمو على منوالها الطبيعة.

فاتجه الاستفادة من الطبيعة في الفن الحديث إلى محاولة الكشف عن نظام البناء وجوهره، مبتعداً عن الاستفادة التي كانت في الغالب تقتصر على الجانب المرئي بالعين المجردة، أو محاكاة الطبيعة كما هي، كما ركزت النظرية الحديثة على اعتبار الطبيعة موضوعاً للإبداع من خلال مفاهيم جديدة تتفق مع معطيات وروح العصر الجديد، ولا شك أن اهتمام الإنسان بالطبيعة يأتي من خلال دراسة عميقة ومتأنية لعناصرها المختلفة.

نستشف ما وراء المظاهر التشكيلية البسيطة الخارجية للتوصل إلى الحقائق الكامنة الكلية ولقد ساعدت التطورات العلمية بما أتت به من أجهزة مركبة، ومتطورة، على تبصر واكتشاف ما يكمن في الطبيعة من نظم وقوانين وعلاقات جمالية أسهمت في إثراء المدركات الفنية.

يذكر خميس أنه " بفضل الميكروسكوب يرى الفن كثيراً من الحياة، وطبيعي أن رؤية جديدة مثل هذه لابد أن تعكس فناً جديداً في أشكاله وهيئاته، وفي ألوانه. "(خميس 1976م،56)[71]

ويقول البسيوني " إن عصرنا يختلف كثيراً عما قبله من عصور وهذا الاختلاف من شأنه أن يؤثر على كل شيء في الحياة، وبخاصة على الفن التشكيلي بفروعه المختلفة التصويرية والتطبيقية."(البسيوني1983م،19)[19]

ولقد مر التعبير عن الطبيعة بمراحل عديدة من مدارس الفن قديماً وحديثاً. وقد سبق ذكره في الفصل السابق. حيث مثلت كل رؤية انعكاساً حقيقياً لروح العصر التي عاشها الفنان، والتي أثرت على تطوراته في استعادنته بما خلقه الله عز وجل في الطبيعة.

فمنذ بداية القرن العشرين، والعلم قد دعم مجالات بحثه بأجهزة متطورة وبطرق تجريدية وتحليلية دقيقة، مكنت الفنان وخاصة الخزاف من الوقوف على كثير من الأسرار العميقة للطبيعة، فلم يعد يتحدد مفهوم الطبيعة بعد ذلك وفقاً لافتراضات من الخيال، أو وفقاً للمظاهر المحسوسة بالعين المجردة، فلقد وصلت المعرفة إلى آفاق رحبة وعميقة.

التقدم العلمي وأثره على رؤية الفن للطبيعة:

إن العصر الحديث باكتشافاته المتعددة في مجالات العلوم والمعرفة المختلفة وخاصة بعد الانتصارات التي تحققت في مجالات العلوم والتكنولوجيا وما تزال إلى الوقت الحاضر، وما تكشفت عنه الدراسات الحديثة في لأعماق الطبيعة بكل ما تحتويه، وبعد أن استعاض العلماء بالرموز والمعادلات في الحديث عن الكائنات الحية والماء والهواء والرمال بل والجمادات أيضاً. كل ذلك فتح للفنانين أبواب واسعة للبحث والتوصل إلى القوانين السائدة وراء مظاهر الأشياء وخباياها.

فبدأ الفنانون ينتجون الأفكار المجردة بدلاً من الأشكال المرئية مسايرة للحركة العلمية المعاصرة.

يذكر خميس" إن هناك كثيراً من الأمور التي تتصل بالإنسان وحياته، ومما تتصل بالكون ومظاهره، وتخضع للتفسيرات الذاتية والآراء الشخصية، أما بعد أن بدأت النهضة العلمية أصبح كل شيء يخضع للتفسير العلمي، وبالتالي أصبح للفن تفسير مماثل، وأسس ونظريات علمية يقوم عليها."(خميس 1976م،60)[71]

إن مهمة الفن ليست قاصرة على المحاكاة الحرفية للطبيعة وإنما هي إحدى الوسائل التي يتم التعبر بها عن الرؤية الموضوعية، وأن الهدف من الفن هو إيقافنا على الحقيقة، وبذلك أصبح واجب الفنان هو الكشف عن حقيقة الوجود والأشياء وهذا يستلزم بطبيعة الحال أن يعيش الفنان الواقع بفكره ووجدانه، ليتدبر ما فيه من معان ونسق تقوم عليها الحياة من حوله ويستفيد من التطور العلمي الواسع في جميع المجالات.

والفنان في هذه الحالة هو عبارة عن شحنة حسية فريدة يساندها عقل واعي يعكس أفكاراً شاملة عن طريقة العصر. فمضمون العمل الفني لابد أن يساير المستوى الحضاري السائد في عصره.

إلا أن ذاتية الفنان تلعب دوراً هاماً في التعبير عن الطبيعة الموجودة والحياة حيث تنصهر مواد العالم الموضوعي داخل بوتقة اللاشعور وتمتزج بعقلية الفنان وبمستواه الثقافي مع أحاسيسه ورواسبه اللاشعورية الدقيقة، فتتشكل الرؤية الفنية ويأخذ العمل الفني طابعه الخاص.

يذكر الصبحي " إن مكونات الطبيعة تعتبر بمثابة مصادر عظيمة لتكوين (رصيد فعال من الثقافة البصرية، وبالتالي فإن كل عناصر الطبيعة يكون لها الأثر في تشكيل الخبرات المرتبطة بالتعبير الفني كمقومات ومثيرات له."(الصبحي 1988م،61)[42]

ولكي يتفاعل الفنانين مع الطبيعة بوصفهم أكثر قدرة على التأمل وأدق على الملاحظة، وأقدر على الاستلهام، والارتقاء بذوقهم العام وتصورهم الشامل المتكامل للطبيعة برؤية فنية نافذة ومتأملة، أصبحت الطبيعة تشكل تراثهم الذي يستوحون منها عناصر أعمالهم، والتي يعبر من خلالها عن صيغ جمالية رائعة عبر عصور الفن المختلفة وحتى وقتنا الحاضر والتي صنعت عبقريتهم ، وأفرزت إبداعاتهم.

فقضية رؤية الطبيعة يجب أن تتطور من خلال تذوق الطبيعة، ويجب أن يكون الهدف الحقيقي إيجاد طريقة للتعبير عن الرؤية الشخصية المنفردة ، من خلال رؤية الطبيعة، والتي يمكن أن توجه إلى عالم جديد، يتميز بحس مرهف وفكر ذي تعبير آخاذ.

ويذكر حسن" مع ظهور شمس القرن العشرين، ابتدأت تشرق في سماء الفن خطوط من أنوار الميتافزيقية * ومن هنا بدأ التحول الكبير من الشكل المجرد الجميل إلى المعنى الكامن في الشيء، وفي حقيقته، من وراءها ذلك الشكل الظاهري، والبحث عن المجال الطبيعي في جوهر الأشياء، وتبعاً لهذا التطور أصبح مظهر التحطيم في الشكل الطبيعي الموجود في واقع العالم المرئي، واتخذ صوراً متنوعة، وأساليب مختلفة، تبعاً لتطورات الفنان."(حسن د. ت،93)[62]

وقد تحولت رؤية الفنانين للطبيعة من الرؤية البسيطة إلى الرؤية المتعمقة الفاحصة وراء الجوهر الحقيقي للطبيعة، فوجدوا أنها تختزل كماً هائلاً وكبيراً من الأنظمة البنائية والقوانين الرياضية والعلاقات التشكيلية، وهو ذلك الجانب الممثل لحقائق الأشياء؛ باعتبارها المحور الرئيسي الذي تدور حوله شتى الأساليب الفنية بطريقة مبتكرة.

إن كل إنسان قادر على استخدام حواسه يستطيع أن يرى كل الألوان والأشكال والتراكيب التي تحتويها عناصر الطبيعة، إلا أنه عند التعبير عنها يمزج ما يراه بخبراته الذاتية وفق خياله غير المحدود؛ ليعبر عنها ويشكلها في أشكال جديدة أخذت من جوهر الطبيعة وصُقلت في بوتقة الفنان.

فقيمة الفنان ليس كونه ينسخ صوراً للواقع المرئي، وإنما قيمته في مقدرته على جعل ما هو خلف العالم المرئي قابلاً للرؤية، والتي سينتقي منها الفنان أشكاله والمعاني التجريدية التي لا تنفذ، وتوفر قيم فنية وتشكيلية تجسد مشاعر الفنان الذاتية.

يقول الخولي " إن في استلهام الطبيعة بما فيها من ثراء يمر الإنسان بعمليتين إحداهما داخلية متصلة بقدراته الإدراكية لما فيها من ثقافة ومزاج وقدرات فسيولوجية وبيولوجية

* مصطلح يقصد به ماوراء الطبيعة.

والأخرى خارجية تتمثل في علاقته بالطبيعة ، حيث تعتمد عملية التصميم على التنظيم البصري. "(الخولي 1982م،13)[30]

لذا كانت الدراسات والأبحاث الحديثة خطوة إلى إدراك أسرار الطبيعة وإيجاد ملامح للعصر، وقد أدت الاكتشافات إلى منح الفن أهمية خاصة من ناحية، ومن ناحية أخرى كانت النظرة إلى الطبيعة بمنظار التأمل والتدبير في هذا الكون العظيم الذي أبدعه الله سبحانه، والتمعن في كل ما يحيط الفرد من مدركات وكائنات ومخلوقات.. بداية الطريق للوقوف على مواطن الجمال في هذا الكون، وبذلك يصبح الفرد قادراً على التذوق فتنمو أحاسيسه ويرقى وجدانه وتصفوا روحه، وبالتالي يتحقق للإنسان أسمى هدف يمكن أن يسعى إليه ألا وهو زيادة الإيمان بقدرة الخالق العظيم مبدع الكون العظيم.

قال تعالى: " إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار"(آل عمران، 190-191)[1]

إن الطبيعة تتيح للمتأمل والمتفكر في جوهر تكوينها الإحساس بقيمة النظم الداخلية غير الملموسة والتي تنمو بمقتضاها الطبيعة، ذلك النمو الذي يتضمن تراكيب هندسية. وعمليات رياضية غاية في الدقة، وقوانين متعددة قائمة على التناسب في الأشكال وما بينها من علاقات.

تقول المصري: " إن الطبيعة أقرب ما تكون معجم الفنان الباحث عن أسس التنسيق والتنظيم المختلفة للمزيد من المعرفة الدقيقة."(المصري1993م،17)[49]

فمظاهر الطبيعة تخضع لكم هائل من القوانين والأنظمة التي تحدد جماليات الأشكال الطبيعية.

فالباحثة من خلال تناولها لموضوع البحث الحالي استشعرت ضرورة وأهمية التفكر والتأمل في الطبيعة وسبر أغوارها من خلال دراسة جوانب مغايرة عن الواقع المألوف والمعتاد، لتكشف جوانب غير مرئية جديدة، يمكن من خلال نتائجها إثراء مجالات الفن المختلفة والتي منها مجال التشكيل الخزفي في صياغات وتراكيب مبتكرة.

التكنولوجيا الحديثة والفن:

إن قدرة الإنسان على رؤية باطن الأشياء يحتاج من الجهد والقدرة على النفاذ في جوهر الشكل لإعادة رؤيته والتكنولوجيا الحديثة ساعدت الفنان على هذه الرؤية في النفاذ إلى جوهر الشيء، وتعدي قشرة الشكل الخارجية واستخراج الحقيقة الباطنة منه.

ولقد امتازت الرؤية المتكاملة التي تبُث منها أفكار العصر المتلاحم مع الاكتشافات العلمية الحديثة، فنرى الأعمال الفنية اليوم ليست مستوحاة من الطبيعة فقط ولكنها الطبيعة ذاتها، عندما ننظر إليها بعين العقل القادر على رؤيته باطن وعمق الأشكال والكائنات من حولنا. فيصبح الفن ذا قدرة على اكتشاف حركة الطبيعة وسبر أغوارها سواء أكانت بيولوجية، أو وجدانية.

ولقد ساعدت التكنولوجيا الحديثة على نشر أفكار وقيم جديدة في الفن والكشف على مظاهر جديدة للطبيعة، فانعكس ذلك على ثقافة وفكر الفنان المعاصر وإنتاجه الفني، حيث طورته، وولدت له تقنيات جديدة في فنه وقدمت له رؤية ومعارف أفضل وأكثر ثمرة مما سبق، فأوجد التقدم العلمي بيئة فنية جديدة، تأثرت بالأجواء التكنولوجية ذات مفاهيم وقيم ومقاييس غير تقليدية.

فاختراعات الإنسان التكنولوجية جعلته يرى أكثر ويسمع أكثر، والعدسات المكبرة والميكروسكوب والتلسكوب والمجاهر، جعلت الإنسان من خلالها أن يسجل الصور تحت قاع البحر ومن فوق القمر، ومن سفن الفضاء والكاميرات الدقيقة أصبحت تسجل حقائق الطبيعة ومكونات الأجسام الظاهرة والباطنة التي هي فوق مستوى قدرة حواس الإنسان، واُخترقت أشعة إكس لتكشف عن بواطن الأشياء، وبذلك أصبح لرؤية الطبيعة ودراستها ومعدات وآلات وأدوات، وسعت مجال الإدراك، وكشفت عن الكائنات غير المشاهدة والتي لا ترى بالعين المجردة .

تقول الغوري: " أدى استخدام العلم والتكنولوجيا إلى تحقيق أفكار وأحلام الفنانين فلم يعد هناك ما هو صعب تحقيقه، فقد سخر العلم الوسائل والآلات لخلق تقنيات حديثة تساعد الخزافين لتحقيق أفكارهم. "(الغوري 2001م، 131)[45]

فأتاحت التكنولوجيا الحديثة وتطور تقنياتها فرصاً عديدة للفنانين للتعبير عن عوالم خفية، لم تظهر من قبل، فلاكتشاف الأشعة السينية وأشعة إكس، أثر كبير على الفنانين

التشكيلين، وعلى إنتاجهم الفني كما أتاحت لهم رؤية التركيبات الداخلية للكائنات الحية خلف مظهرها الحقيقي.

وتبين عبد الجواد" إن اكتشاف هذه الأشعة قد وجه الفنانين المعاصرين إلى اكتشاف عوالم داخلية أخرى عبر ظاهرة تحوي صوراً إبداعية جديدة للقيم التشكيلية الفعلية على القيم التعبيرية داخل الأعمال الفنية المعاصرة، فعن طريق الاستفادة من أشعة إكس، الناقذة للأشياء الصماء تحولت الأشكال في تكوينات الفنانين إلى مساحات شفافة متماسكة البناء تتأكد أبعادها خلال أجزاء ومستويات التكوين ككل، مما يجعل قيمها الترابطية والإيقاعية واتزانها في متناول الإدراك البصري. "(عبد الجواد 1994م،101)[104]

وبالتقدم التكنولوجي تعددت طرق الأداء الحديثة وبالوسائل المختلفة التي أتاحها التقدم العلمي والصناعي اكتسب الباحثون قيم جديدة مسايرة للعصر ودفعهم لإنتاج أفضل المستويات وسعي لتنمية الحصيلة العلمية الخاصة بالفنون التشكيلية المختلفة.

وتؤكد أبو النوارج بقولها: " في العصر الحديث وجد الإنسان في عالم من الأجهزة والمعدات التي أصبحت تمدنا بالمعارف، بالقدر اللازم لمعرفة العالم والطبيعة من حولنا، إن اختراعات العدسات، والميكروسكوب، وآلات التصغير والتكبير، استطاعت تسجيل أشياء، كان يستحيل للعين العادية رؤيتها. إذ أصبحت تسجل دقائق وتستوضح تفصيلات وتضخمها فوق مستوى قدرة الإنسان العادي." (أبو النوارج1994م،135)[9]

كما أوضح عامر" اليوم في عصر الإلكترونيات، وأشعة الليزر والدراسات الكهروسلبية والطب الإشعاعي ... انتشرت الأجهزة الأوتوماتيكية، وانتشر معها مفهوم جديد للفن الحديث، والذي يرمي إلى إنتاج وحدة جمالية، مرتكزة أصلاً على الطاقة الجمالية الإبداعية المستمدة من الطبيعة، ذات إمكانيات تكنولوجية متطورة." (عامر 1988م،34)[102]

فأصبح مفهوم الطبيعة في العصر الحديث عصر التكنولوجيا والنانو* يكتسب مفهوماً مميزاً بمعنى أن الطبيعة في مجال التذوق الفني أو عالم الجمال أو في مجالات الفن المختلفة يتسع باتساع الخبرة وتنوع الرؤية. إن الفن نتيجة التطور قد شهد تحولاً ملموساً إذ نجد أعمالاً فنية قد استلهمت عناصر أو نظم تكوينها من دراسات مجهرية، أو تجارب علمية، أو تأملات كونية، متحدية بذلك كل المفاهيم المنهجية الثابتة عن الفن، وأسسه وعناصره.

فالطبيعة تزخر بزخم هائل من المعاني والدلالات المعطاة لمفهوم الفن، ويعكس كل معنى فيه اتجاه معين، ينطلق منه هذا المعنى وهو حصيلة ذي فاعلية قوية مشتركة ما بين الفنان

* مصطلح لتقنية حديثة يقصد به: معالجة الذرات والجزيئات والمواد لتشكيل بناء على مقياس واحد على مليار من المتر.

والطبيعة، من حيث المعلومات والمعارف الكامنة وما من شك أن أصغر المخلوقات والتي لا ترى بالعين المجردة، بإمكان الفنان تجسيدها وتشكيلها في أشكال جمالية ذات حصيلة من القيم الفنية، لها علاقات متشابكة، وملتحمة، ومتعددة المفردات، ومختلفة الأشكال والأحجام، وذات زخارف متنوعة، والتي تنتج عنها وحدة فريدة، كشفت عن أسرار وسحر الحقائق التي توصل إليها الفنان بعد جهود عديدة وكل الحقائق العلمية التي وصلت إليه ما زالت مصدر إلهام كل فنان وباحث.

إن رؤية الفنان قد تغيرت نتيجة التطورات العلمية والتكنولوجية، وأصبحت ذات منظور مختلف، إذ تكتشف له هذه الأجهزة عن أدق الخلايا وجزيئات المادة، ومكونات بعض المواد العضوية وغيرها وباتساع دائرة البحث والاختراع ظهرت معلومات ونظريات ومعارف وكائنات مختلفة، تزيد من معرفتنا عن الكون المحيط بنا، من خلال طبيعته وأبعاده، ووجدانه والقوانين التي تحكمه، فتغير فهمنا ومعرفتنا لهذا الكون وموقفنا منه، وتبعاً لذلك تغيرت أبعاد التعبيرات الفنية.

لقد ولدت التكنولوجيا الحديثة تقنيات جديدة وقيماً ذات فعالية أكثر، وشكلت معايير غير تقليدية، ولقد لعبت التكنولوجيا دوراً كبيراً واسعاً في تغذية مشاعر الفنان وأسهمت في تقديم تعليم أفضل له إمكانات عظيمة في مجالات الفن والتشكيلات الفنية.

وتذكر السكر " في العصر الحديث، ونتيجة للاكتشافات العلمية الحديثة، نجد أن الفنان استطاع أن يستخدم العديد من التأثيرات والمثيرات الفنية ويوظفها في أعماله الفنية التي أتاحتها له هذه الاختراعات والمكتشفات ونجد ذلك يظهر بوضوح في كثير من الإبداعات والابتكارات في كثير من مجالات الفن." (السكري 1989م،33)[35]

وتميزت الفنون ومن بينها فن الخزف بالتعبير الفكري والتشكيلي المستمر نظراً لتعدد اتجاهاته ومدارسه الفنية والتي تعتبر نتيجة منطقية لأثر العلاقة المتبادلة بين الفنان ومعطيات هذا العصر الفكرية والعلمية والتقدم العلمي الهائل الذي وصل إليه العلماء في هذا العصر الحديث والتي تغير على ضوئها الكثير من النظريات العلمية القديمة وتغيرت أيضاً بعض المبادئ المتوارثة القديمة فازدهر النقد الفني وتم إعادة تقييم فنون التراث القديم والفنون الأخرى المتعددة وتعددت الاتجاهات الفنية وقد كان من الطبيعي أن يتأثر الخزف بتلك التغيرات العلمية والثقافية وبالتكنولوجيا المتطورة وما أنتجته من مدارس فنية مختلفة من ملف استفادت من تطور العلم وما توصلت إليه التكنولوجيا الحديثة، في النظر إلى الطبيعة وعناصرها المتنوعة.

وقد وجد الكثير من الخزافين منطلقات جديدة ومبتكرة للتعبير عن رؤيتهم الفنية للطبيعة من خلال التطور الكبير والتقدم العلمي العظيم فظهرت صباغات وتشكيلات خزفية جديدة ومتعددة في مجال الخزف.

نظيم وقوانين بناء الأشكال في الطبيعة :

تتضمن الطبيعة نظماً وقوانين تتحكم في نمو وتكوين عناصرها المختلفة وبناء أشكالها حيث ينظم جوهر تلك العناصر في نظام محكم سبحان من أبدعه وتبارك من علاه.

يقول الألفي" تخضع جميع الهيئات الطبيعية لتلك القوانين التنظيمية، والتي هي في حقيقتها ترديد للقوانين التي تحكم هذا الكون بكواكبه وأجرامه، وإن تتفاوت تلك الهيئات الطبيعية فيما بينها من حيث النسب الجمالية. إلا أنها تشترك جميعها في الخضوع للقوانين الكونية العليا من حيث النسب والعلاقات التبادلية ونظم النمو."(الألفي1980م،16)[17]

وفي ضوء ما توصلت إليه المعرفة العلمية عن كيفية بناء الأشكال في الطبيعة يمكن تعلم أصول البناء الجمالي في الفن، فهناك الكثير من القوانين والأنظمة البنائية التي تتحكم في تكوين وصنع الشكل الطبيعي. وهي نفسها التي تضفي على الشكل الفني سمات الجمال والاكتمال.

ويذكر Rieser " إن دراسة تطور تركيب الأجسام العضوية أو غير العضوية يؤدي إلى إظهار الكثير من الأشكال والتراكيب ذات النسق المتكاملة من الوجهة الجمالية وهذا ينطبق ليس فقط على الأشكال المرئية من الطبيعة، ولكنه ينطبق أيضاً على الجزيئات المكونة للمادة مثل الذرة ومكوناتها، أو ما يحدث في جميع مكونات الخلايا."(Rieser 1972، 48)[178]

وتقول جمعة: " أصبح المفهوم العام للفن أنه يتخذ شكلاً أو هيئة وأن أفضل الأشكال الفنية هو الذي يمتعنا أكثر من غيره وفي هذه الحالة لابد أن يتمتع هذا الشكل بخصائص معينة تثير المتعة لحواسنا ونتخذ مقياساً لجودة هذا العمل الفني، وينبغي أن تتوافر صفة الموضوعية عن هذا المقياس. إنه ماثل في قوانين الطبيعة ونسقها استلهمه الفنانون لإعمالهم هي نفس الأشكال الأولية الموجودة في الطبيعة"(جمعة 1972م، 5-6)[95]

والنظام خاصية من خواص الكون الذي يعيش فيه ، والمتأمل لهذا النظام يجد نفسه أمام العديد من العلاقات الهندسية والتراكيب المتنوعة، ولقد تناولت بعض أبحاث علم الجمال علاقة الفن بالطبيعة، وتعرضت فيها للكشف عن قوانين الطبيعة وما تحتويه من علاقات وتراكيب ونظم للأشكال، تجلب لحواسنا المتعة.

كما ظهرت العديد من الدراسات التي تسعى إلى التعرف على النظم التي تتحكم في بناء عناصر الطبيعة وأشكالها وما تحمله من سمات جمالية، والحقيقة أن الطبيعة كانت وما تزال تمثل التحدي الأكبر لقدرة الفنان على استخراج أفكارها وأشكالها التي لا تحدها حدود، حيث تحتوي الطبيعة على هيئات وأشكال لا نهائية مختلفة ومتنوعة، ناتجة عن ترابط العناصر بعضها مع بعض، وفق قوانين ونظم أساسية تقوم عليها.

ولقد لاحظ بعض العلماء أثناء دراستهم لبعض عناصر الطبيعة أن لها أنظمة وتراكيب هندسية مشتركة، وإن اختلفت في الأحجام، فقد تكبر أو تصغر، ويكون هذا الشكل متكرراً مع اختلاف مساحته المعتمدة على نظام رياضي متنوع؛ من شكل واحد، مما يجعل أشكالها لا تتساوى في هيئاتها، بالإضافة إلى تنويعاتها الهائلة.

إن الإنسان الفنان منذ دراساته المختلفة للطبيعة، في التعرف على النظم والتراكيب وقوانين البناء التي تختفي وراء المظهر الخارجي لعناصرها، والتي تسبب ذلك المظهر الخارجي. فبناء أي كائن عضوي هو عبارة عن ترتيب وتنظيم ثابت نسبياً من العلاقات القائمة بين الخلايا لهذا الكائن.

ويذكر الصائغ "إن الطبيعة قد أوجدت للفنان منظومات عديدة ومتنوعة، والتي عكست على بيئة الفن، فالمتأمل للفنون السابقة يكتشف مدى آثار الطبيعة؛ من حيث النظام في العلاقات والأشكال الهندسية، والعلاقات الخطية، والمساحات والتوازن ما بين الألوان والفراغات، وبمزيد من التأمل نجد أن هذه الطبيعة فلسفة في التجريد والمنطلق الرياضي وتقنية في الرسم، والتلوين، والتنظيم، والحساب. "(الصائغ 1988م، 103)[40]

ويبين دسوقي" إن العلوم كشفت عن نظم ثابتة ومحددة في كيان كل الموجودات، والتي تعمل كقوانين تنشأ وتتشكل وتنمو بمقتضاها سائر الكائنات الحية والجامدة، فأصبح مفهوم الطبيعة يعني القوة والسيطرة على نظم ونسبق الكون والوجود في إطراده، ونموه وتطوره"(دسوقي 1990م،11)[72]

فبالتأمل في جوهر الطبيعة وتكوينها نستشعر قيم النظم الداخلية غير الملموسة والتي تنمو بمقتضاها الطبيعة، ذلك النمو يتضمن تراكيب هندسية وعمليات رياضية غاية في الدقة وقوانين كثيرة قائمة على التناسب والأشكال وما بينها من علاقات. إن العملية الفنية كشفت عن الإيقاع والتوافق والتكوين والتنوع مع الوحدة والانسجام في نظم الطبيعة وقوانينها.

تقول شلبي " إن القوانين الطبيعية تكشف عن وجود وحدة خلق لا يستطيع الإنسان إدراكها لأول وهلة نظراً لشدة التنوع في العناصر الطبيعية باعتبار أن التنوع هو قاعدة الطبيعة،

والتنوع قد يتمثل في العناصر الطبيعية المتباينة كالنباتات والطيور والفراشات والأسماك والبلورات والقواقع .. وغيرها من العناصر الطبيعية كما أن التنوع قد يكون في الهيئة والشكل وقد يكون في التفاصيل الداخلية." (شلبي 1996م،61)[95]

كما يذكر Gombrich " إن حقيقة تمتعنا بهذا الجمال في الطبيعة ترد إلى القانون البنائي الذي تنتظم على أساسه الأجزاء والعناصر المكونة للأشكال والهيئات. "(Gombrich 1983م، 9)[158]

وحيث أن جميع الهيئات الطبيعية تعكس القوى الترابطية التي تخضع لنظام خاص بها في الطبيعة يحدد وجودها وهيئاتها ودورها في النظام العام للحياة. أصبحت تلك النظم بمثابة الشفرة التي يفهم عن طريقها رموز المكونات الجمالية لهذا الكون وما ينطوي عليه في أشكال لا نهائية ناتجة عن ترابط العناصر بعضها ببعض.

وقد قسم هربرت ريد الأشكال في الطبيعة إلى ثلاث أشكال يقول: " إن الأشكال في الطبيعة تقسم إلى ثلاث أنواع:-

النوع الأول: الشكل المنتظم المحدد بخطوط مستقيمة مثل خلية النحل شكل (80).

النوع الثاني: هو الشكل المنتظم المحدد بخطوط منحنية، وهو ما يسمى بالشكل الحلزوني، ويتمثل في الصدف اللؤلؤي شكل (81).

أما النوع الثالث: فهو الشكل الملفوف الغير منتظم، كما في بعض الفطريات وفي العظم المكون للهيكل العظمي للإنسان.شكل (82)"(ريد1962م، 13-16)[77]

(ب) (أ)

شكل (80)

أشكال مختلفة لخلية النحل كنموذج للأشكال في الطبيعة.

www.fresh-honey.com

(ب) (أ)

(د) (ج)

شكل (81)

أشكال مختلفة لأصداف بحرية كنموذج للأشكال في الطبيعة.

www.majdah.maktoob.com/vb/majdah

(ب) (أ)

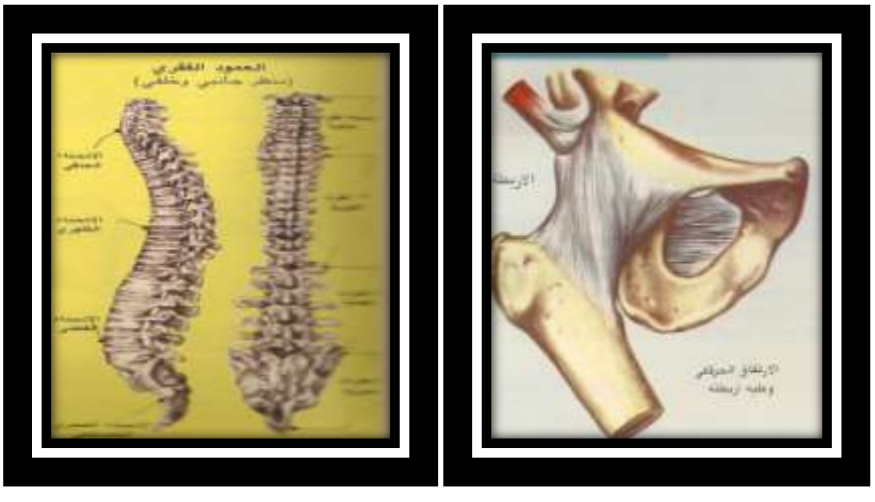

(د) (ج)

شكل(82)

أشكال مختلفة من عظام الإنسان كنموذج للأشكال في الطبيعة.

(البوز،شعلان 1981م، 37-41)[23]

وترى الباحثة أن رؤية التركيبة الداخلية للكائنات الحية المجهرية من فيروسات وبكتيريا وفطريات والتي هي مجال الدراسة في هذا البحث سوف يكشف بعض القوانين والنظم التي تحكم بناء الأشكال، ويمكن تحديد نظم معينة، فهناك نظم يسهل دراستها واكتشافها بسهولة، ونظم أخرى يصعب التعرف عليها، ولكن وجودها يتأكد بما تفرضه على الأشكال من علاقات تتسم بالنظام والاتساق، وهي تحتاج إلى جهد في التحليل ودقة في التعرف واستخلاص النظم والتراكيب.

إن رؤية هذا النظام والتراكيب التي يكشف عنها من خلال دراسة جمال وسحر الطبيعة والذي يمكن التعبير عنه من خلال أشكال خزفية مبتكرة تثري مجال التشكيل الخزفي.

كما تؤكد الباحثة على أن علمية التأمل في مضامين الطبيعة وسبر أغوارها، وإدراك تفاصيلها الدقيقة والخفية، واكتشاف أسرار تكوينها تثير لدى الباحث والمتذوق والدارس الإحساس بروعة الخلق والطبيعة وهذا الكون العظيم الذي أبدع خلقه الخالق العظيم جل في علاه.

فالطبيعة وعلم الكائنات الحية المجهرية مليء بالحيوية ومفعم بالنشاط والحركة المنتظمة المتزنة، وهو بداية إحساسنا بالجمال، كما يحتوي على تعبيرات وأشكال غنية ومتنوعة، بما تتضمنه من هيئات قد توحي بالكتلة والثقل، وامتزاج عناصرها بين الرقة والعنف والمرونة والصلابة، والتجسيم والإيحاء بالتجسيم، ودقة الانتقال بين النور والظلام، فاستطاعت الطبيعة بذلك أن تحرك مشاعر الفنان، وتوجهه إلى رؤية متجددة في الفن فأمعن في الكشف عن خباياها، الذي بدوره يفتح آفاق واسعة ويفجر طاقات كامنة للإبداع الفني.

وهذا ما يسعى البحث الحالي إلى تحقيقه – إن شاء الله – وما تحاول الباحثة من خلاله أن تكشف جانب من الجوانب الغير مرئية من الطبيعة بما فيها من قيم فنية وتشكيلية، تثري مجال التشكيل الخزفي المختلفة.

فبحث وتحليل عينات من الكائنات الحية المجهرية التي لا ترى بالعين المجردة ، من خلال الصور المكبرة بالميكروسكوب آلاف المرات والتي تظهر من خلالها مجموعة من الأنظمة اللانهائية وتراكيبها المختلفة، والتي تكشف عن قيم فنية وجمالية وتشكيلية مميزة، فمن خلال تأملها والتدقيق فيها وتحليلها وتصنيفها. يمكن أن تصل الباحثة – إن شاء الله – إلى حقائق

جديدة حول الطبيعة والقوى العميقة والكامنة بها وما بها من جمال يمكن الاستفادة منه في الإبداع والابتكار فاستقراء الطبيعة مدخل واسع من مداخل الإبداع والابتكار، كما أن جوهر الطبيعة يكشف الإيقاع والتوافق الممثل في النظم البنائية في الطبيعة وقوانينها وتراكيبها المختلفة.